لاشكّ أنّ نصوص ونوس جديرة بالدراسة لما تضمنت من إمكانيات وطاقات فنية وجمالية ورؤى فكرية وسياسية متكئة على إمكانية خلق جمهور لها، على الرغم من توقّف هذه التجربة.

هذا البحث مدعوّ للمساهمة في الإجابة عن أسباب هذا **التوقف** أيضاً.

لابدّ أولاً من اللجوء إلى تحليل **أبنية** نصوص ونوس المسرحية و**شخوصها ولغة خطابها*** المسرحي، و**موضوعاتها**، وتتبع **التقنيات الفنية** المستخدمة وذلك من منطلق أنّ: " الأدب إبداع تركيبي، والنقد إبداع تحليلي"[21]

وهذا يقتضي اللجوء إلى تحديد الموضوعات في النصوص المتعلقة بالسلطة السائدة بشكل رئيسي، ودراسة كيفية تناول ونوس **للأحداث** التي جسدتها **شخوص** مسرحياته، وإلى كشف العلاقات المجتمعية التي تحكمها **قيمٌ** تهيمن على ما تقوله الشخصيات، بهدف التعريف بكلّ ما أراد ونوس أن يقوله في هذه النصوص، وذلك عبر تتبع **عناصر المسرحة** و **التقنيات المسرحية**، و**الأعراف المسرحية** المستخدمة في هذه المرحلة من نتاجه المسرحي.

مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر

يستهلّ ونوس مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر بإبراز مقهى شعبيٍّ يتموضع على **منصّة** المسرح، ويتوزع فيه زبائن مسترخية، ومعظمهم يدخنون النرجيلة، ويشربون الشاي، يتحرك بينهم الخادم، وتنتشر أصوات أغان طربية يبثها المذياع، وتختلط أصواتها بصوت الزبائن وهم يطلبون الشاي أو النار، وأحاديث فيما بينهم عن أحوال معيشتهم اليومية، ثم تسمع أصواتهم وهم يطالبون **بالحكواتي** العم مؤنس، إلى أن يصل ويلقي السلام بمهابة، وعندما يستوي على كرسيه، يُقفَل المذياع، وحينها يطالب الزبائن الحكواتي بسرد سيرة الظاهر بيبرس التي تشهد على أيام

---

* **الخطاب المسرحي:** Theatralical discourse لغة: الكلام، خاطب أي كالم، و الخطاب الواسع هو الجمل المنتظمة في أقوال لتشكّل خطاباً حين يتحدد كفعل له فاعل هو صاحب الخطاب، وللخطاب المسرحي خصوصية تكمن في كونه مقتصداً ودلالياً، كما أنه يعبّر عن قول مزدوج لعمليتي تواصل متداخلتين هما: خطاب الكاتب والمتضمن كلّ ما يعني فريق العمل المشارك في إنتاج العرض المسرحي، والخطاب الناشئ على شكل حوار بين شخوص المسرحية الذي يتوضع بين الكاتب أو المخرج وبين متلق، وفي هذا الخطاب يختفي فيه الكاتب كصاحب قول ويبدو للمتلقي على شكل حوار أو مونولوج أو توجّه للجمهور، أو يكون حركياً كالإيماء، كذلك يلعب المتفرج دوراً في تفسير الحوار المسرحي أثناء استقباله للخطاب الذي لايحمل أي معنى إلّا إذا كان في سياق العلاقة التي تربط الشخوص المتخاطبة ضمن ظروف زمانية ومكانية محددة.

حنان قصاب حسن وماري الياس، م.س، ص186.

البطولات والتي ينتظرونها منذ فترة بفارغ الصبر، ولكن الحكواتي يقول لهم بأنّه سيكمل قصص زمان الاضطراب والفوضى، وعندما يسألونه عن إصراره على رواية **الحكايات** الكئيبة التي تشبه زمانهم الذي يعيشونه، ويذوقون مراراته كلّ لحظة يجيبهم:

"لكلّ شيء أوان ... لكنّ القصص مرهونة بتسلسلها وأوانها. لكل قصة أوان" ويبدأ بالبسملة وسط أصوات الزبائن الذين يطلبون احتياجاتهم من الخادم" [22] مشيراً إلى حاضرهم المأساوي، الذي يناسبه قصة بائسة تشبه حاضرهم، ثمّ يروي لهم قصة خليفة المسلمين في بغداد شعبان المنتصر بالله وصراعه مع وزيره محمد العبدلي في عصر غير مستقر، والذي تسبب في غزو جيوش غريبة لبغداد وتدميرها، وسرقة وقتل أهلها. ويظهر الناس في ذاك الزمن تائهين من كثرة تقلبات الأحداث، وهم لا يتدخلون فيما يجري، إلى أن يقول الحكواتي للزبائن:

"رتبوا حياتهم على أساس ما اعتقدوه أسلم الطرق إلى الأمان"[23] ثم يبدأ مستوى آخر للمسرحية بدخول خمسة ممثلين يمثلون أهالي بغداد في ذاك الزمان، ويتوزعون بين الزبائن، ويدور بينهم حوار حول أحوالهم البائسة بظلّ نظام الخلافة الذي يأمرهم حكّامه فيطيعون أوامرهم من دون جدال، وهذا الذي يفسّر سرّ الأمان الذي تعلّموه من سياط الجلادين وحراب الحرّاس، وانطباق أبواب السجون على أحبّتهم، وأنّهم في كلّ مرّة، يبايعون متى طُلبت منهم البيعة. ثم نسمع صوت المجموعة:

"ونحن عامة بغداد آثرنا السلامة والأمان. ننزف دماءنا الليل والنهار بحثاً عن لقمة العيش"[24] ويرد زبون2 من زمن المشاهدة:

"أي والله كأن الأحوال لا راحت ولا جاءت"[25] ثمّ يحكي الحكواتي **قصة المملوك جابر** الذكيّ والحيويّ وغير المعنيّ، بما يجري بين الخليفة والوزير، إلّا بالمقدار الذي يخدم مصالحه الضيقة، ويمكّنه من الارتقاء في درب الثراء والمكانة الاجتماعية والسلطة.

في المستوى الآخر من المسرح يظهر جابر ومعه المملوك منصور، يضعان قطع ديكور تمثل ما يشبه رواقاً في قصر بغداد، ويبدأ جابر الحوار وهو يدندن لاهياً:

"عندما أصبح للمسلمين خليفة، سأسميك وزيراً للدولة."[26] ويتحاوران عن صراع الملك والوزير، ومآل أهل القصر، ويذكر جابر زمرد خادمة محظية الوزير التي تنقل له أخبار القصر بحذاقة، وتمنيه بالوعود دون تمكنه من الوصول إليها، ثم يعبّر عن عدم اكتراثه بصراع الخليفة والوزير، ويبدي رغبته مشاركة أهل بغداد التفرج على الفتنة التي ستودي برقبة أحدهما، وعندما يقول جابر:

"لكل عملة وجهان والمهم أن تميل في الوقت المناسب إلى الوجه الكاسب .."[27] يعلق زبائن المقهى أن هذا المملوك:

"ابن زمانه "[28] ثم يأخذ جابر قرشاً من منصور ويقول له: إنّ الحكومة كلها في هذا القرش، ويراهنه على الكاسب، بحيث جعل للخليفة وجه وللوزير الوجه الآخر للقرش، ثمّ يقول له:

"الربح قرش، والخسارة قرش، وبينهما خليفة المسلمين ووزيرهم معلقان"[29] ثم يتابع الحكواتي القصة، ويخبر أن الخليفة اجتمع مع قواد الأمن، وفي اليوم التالي أطبقوا على المدينة لمنع الوزير وأعوانه الاتصال بالخارج. أمّا أهل بغداد فقد سارعوا إلى الأفران، ليؤمّنوا خبزهم لأيام. يجسّد ونوس هذا المشهد تمثيلاً حيث يتقدّم الممثلون، ويلعبون أدوار أهل بغداد أمام الفرن، ويعبّرون عن بؤسهم وفقرهم أمام رفع التجار لأسعار السلع، وعن هواجسهم ومخاوفهم من خروج الحرّاس من ثكناتهم واكتساحهم أسواق المدينة، وتلمّسهم لاضطراب الأحوال، وأنّ عاصفة ستهبّ على بغداد بين لحظة وأخرى، ثم يبقون مصرّين على عدم تدخلهم في الصراع الناشب الذي لا يعنيهم، فالمهمّ لديهم هو الخبز والأمان، ويقول الرجل الثالث:

"وإذا هبّت العاصفة، ما علينا إلّا أن ندخل بيوتنا، ونغلق نوافذنا جيداً "[30] والرجل الثاني:

"وما علاقتنا! ابعد عن الشرّ وغنّ له"[31] ثم يقترب حارسان، فيخاف الناس منهما كثيراً، ولكن الرجل الرابع ينقذهم بفضل فطنة اكتسبها من خبرته في معارضته لسياسة القهر السلطوية، حيث قام بتغيير مجرى حوارهم عن أحوالهم التي قد يحاسبون شرّ حساب على مجرد الحديث عنها، ولمّا أبدوا إعجابهم بفطنته وشجاعته قال لهم :

"وحق الله أخافهم مثلكم.. وشعرت قلبي يكاد أن يتوقف لكن أن نظلّ كالعميان لا نعرف إلى أية مهاوٍ تدفعنا الأحداث؟ [32]

وتردّ عليه امرأة مفضّلةً بقاءهم عمياناً بين أهلهم أفضل من أن تفقأ عيونهم في الزنزانات، ويطلب منه آخر أن ينزِّل السلم عن ظهره، ولكن يتدخل الرجل الثالث ويقول أن خلافاتهم لا تمنع الحكام من الاتفاق على منع العامة التدخل في شؤونهم وخلافاتهم، ثم تُذكَر السجون الرهيبة، ويعودون للوم الرجل الرابع الذي يؤكد لهم من جديد:

"إنّ ما تقولونه لا يقود إلاّ إلى ما نحن فيه، نهترئ كالنفايات، ونجري قلقين كالكلاب الملدوغة، وندفع ضريبة خلافات لا نعرف أسبابها ولا مغزاها" أما الآخرون فيتفقون على مبدأ:

"من يتزوج أمنا نناديه عمنا"[33] و"ابعد عن الشر وغن له" [34] ثمّ ينزوي الرجل الرابع، وهم يتدافعون أمام الفرن عندما وصل الخبز وهو يردّد:

"... إننا نتخلى عن رؤوسنا نسلمها إلى الجلادين..."[35] يتوقف المشهد هنا، ثم يكمل الحكواتي، ويحكي عن استمرار مظاهر الصراع لدى الوزير الذي يتسرب خبراً من قصره، ويصل لأذن المملوك جابر، الذي رواه له المملوك ياسر مفاده: أن رسالة تحوم راغبة في الخروج من عند الوزير، ولا يتمكنون من تمريرها لوجود حرّاس أبواب المدينة الذين يفتشون كلّ من يخرج بشكل دقيق. ثم من خلال **حوار** بين جابر وياسر نعرف أن حلماً يراود جابر بقدرته على نقل رسالة الوزير.

ينتقل الحكواتي بمستمعيه إلى حال الوزير المحرج وهو يجالس أعوانه الحائرين، فجعله في حالة توتر دائم. هنا يقدّم ونوس للمشاهدين موقفاً تمثيلياً يدور بين الوزير ومعاونه عبدالله، نعرف من خلاله أنّ الملك أوصل رسائله للولايات، وأبلغهم باستعداده للتنازلات لهم حتى لو لزم الأمر منحهم الاستقلال مقابل أن يضمنوا وصول قواتهم للقضاء على خصمه السياسي الوزير وأعوانه، كما نعرف من الدور التمثيلي أن الوزير مستعجل لإرسال رسالة إلى الأجنبي، وحائر في إيجاد وسيلة لتوصيلها، وعندما يشير المعاون عبد الله لمخاطر الجيوش الغازية يردّ عليه الوزير بكلّ استهتار:

"الجيش الغازي يأتي ليحمي مصالحنا، ويجهّز لنا كرسي السلطة، فماذا يهمّنا بعد ذلك! بالتاكيد سيكون هناك خراب، لن يدخل الجيش بالدفوف والغناء، ولن يوزّع الورود والعطور. هذه حرب.. سيقتلون ويخربّون. طبعاً لن يبقى من ذرية الخليفة حيّ، وستصبح قصوره خرائب كما لن يوفروا المدينة، سينهبونها ضريبة للانتصار، أمّا نحن فماذا يخيفنا؟ ليدعموا لنا السلطة، فهل نطلب أفضل من ذلك!"[36] وعندما يتحادثان عن العامة يقول الوزير باحتقار:

"العامة!.. ومن يبالي بالعامة؟.. هؤلاء لا يثيرون أيّة مخاوف. يكفي أن تلوّح لهم بالعصا حتّى يُمحوا، وتقتلعهم من ظلمات بيوتهم."[37] أما خطيب الجامع كما يقول الوزير لمعاونه فهو: "لا يورط نفسه، ولا يمشي خطوة إلّا إذا كان واثقاً أن خطّ الرجعة مأمون، ستكون خطبة الجمعة أدق من إبرة الميزان. سيختار كلّ كلمة بحيث لا يوحي بأيّ انحياز" [38].

إلاّ أن المملوك جابر شاطر، وبعد بحث وتميحص، وجد التدبير لنقل رسالة الوزير، فذهب إلى قصر الوزير و دخل إلى ديوانه، وأبدى استعداده لنقل الرسالة، وبدأ بمساومته ليوصلها، هذه المساومة التي دلّ الموقف المعبّر عنها على عدم تكافؤ الطرفين، وعلى انتهازية المملوك جابر، الذي حصل على وعد من الوزير بمركز يرفعه من ضعته، وأيضاً: "يزوّجه من زمرد، وفوقها مال كثير"[39]، إن تمكّن من توصيل الرسالة إلى بلاد العجم.

إن ونوس أراد أن يرمز للفئات المثقفة، بكل الأزمنة، من خلال سلوك المملوك جابر الذي يسلّم رأسه للسلطة السياسية مقابل منفعة فردية له من دون أن يلعب دوراً إيجابياً وسط الجماعة التي ينتمي إليها.

إلى أن يقدّم المملوك جابر رأسه للوزير ويقول له:

"إني أهبك رأسي يا مولاي" [40] ويخبره أنّه راقب الحرّاس، ولاحظ أنّهم يفتشون كلّ شيء ما عدا تحت شعر الرأس، واقترح عليه أن يحلق له شعره ويكتب الوزير الرسالة على جلد رأسه ثمّ ينتظر حتى ينمو الشعر ويطول، ويخرج بالرسالة من بغداد بسلام. يلهث الوزير ويقتنع بالفكرة، ويؤكد لجابر من جديد وعوده له بعد نجاحه في المهمّة.

ينتقل ونوس، بعدئذ، مع المتفرجين إلى أجواء المقهى في الزمن الراهن، فتتعالى تعليقات الزبائن، الذين لم يجدوا من الحكاية دماراً للوطن، أو خيانة حكّام تافهين، أو انتهازية في موقف جابر الذي يسلم رأسه للسلطة مقابل وعود نفعية واهية من دون أن يعرف مصير مدينته، بل يقدمهم ونوس بالمعجبين بجابر الرجل،" ابن زمانه"، و"والله يحميه على فطنته التي تجعله يلعب بدولة"، ثم يتنفسون الصعداء لأن تدبير جابر سيغيّر من أحوال الخلاف لمصلحة فريق في السلطة، ولكن من دون أن يتساءلوا عن تبعات هذا الخلاف على مصائرهم إلى أن يصل الحلاق مع صبيانه، ويعدّون العدّة للمباشرة بحلاقة شعر جابر الذي يقوده الوزير: "حتى أجلسه على الكرسي العالي، فاستقام ظهره فوقه، وامتلأ بالزهور. وكانت عيناه تبرقان، وتدغدغ مخيلته الأحلام"[41] وأثناء الحلاقة شعر جابر أن رأسه يتعرى، وأحسّ بالبرودة، ولكن ظلت النشوة تختلج في عينيه غير المضطربتين، وعندما يتلّمس الوزير رأس جابر فيقول جابر له، وكأنّه مخدّر: "أرتعش من السعادة إذ يسبغ مولاي على رأسي الوضيع هذا الاهتمام" [42] لقد منحه رأسه ليكتب عليه بريشة وحبر لا يمحى إلّا بالحفر، وعندما ينتهي من الكتابة التي آلمت رأس جابر المتحمّل للألم الشديد، توقّف الوزير برهة ثمّ استدرك بعد تفكير كتابة حاشية ناقصة على رأس جابر، فكتبها بتأنّ ثمّ يخرجان.

يعلن الحكواتي عن استراحة فيعترض عليه زبائن المقهى، وهم يبدون إعجابهم بالمملوك جابر الفطن والجرئ والذي يعرف كيف يتسلق عرش السلطة، كما أنّ شأناً كبيراً ينتظره، ماعدا الزبون 4 الذي اعتبره نهّاز فرص، وقد يصل إلى أسفل المراتب.

يُشغّل الراديو، ويسمعون أخباراً، فيسارع الزبائن بطلبات تغيير المحطّة عن أخبار تهزّ البدن، ثمّ يترنّمون لسماع أغنية أم كلثوم. تنتهي الاستراحة، ويدخل الحكواتي وعندما يطالبونه بسيرة الظاهر بيبرس من جديد، يردّ عليهم: " لن نفهم أيام الظاهر إلّا إذا فهمنا ما تقدمها من

أوضاع وأزمان. ولا تنسوا أن التاريخ متسلسل"[43] وكأنّ ونوس أراد ان يمنح الحكواتي قدرة على تعريف الناس بأحوالهم البائسة باختياره حكايات تشبه حاضرهم البائس.

ثم يكمل حكاية جابر الذي لازال قابعاً في مكمنه منتظراً نموّ شعر رأسه.

ينقلنا الحكواتي، فيما بعد، إلى القصر حيث الخليفة وأخوه، ويدخل ذات الممثلين اللذين لعبا دور الوزير و الأمير عبد الله، ويمثّلان دوري الخليفة المنتصر بالله وأخيه عبد الله، في ديوان الخليفة بعد أن وضعا قطع ديكور بسيطة تمثّل ديوان الخليفة، ونفهم من حوارهما أنهما قدّما تنازلات سخية للولايات التابعة للخلافة، ستجردهم من معظمها، ولكن عبد الله الذي يعرف تناقضات الولاة يقول: "من اليسير دائماً أن نشعل بينهم معارك تستنزفهم وتضعفهم حتى التنازلات يمكن أن تكون مؤقتة "[44] وعندما يحتج الخليفة على نقض المواثيق يرد عليه:

"القوة هي ميثاق كل المواثيق يا خليفة المسلمين"[45]، ويتخوّف الخليفة من حالة الحرب لأنّ العساكر لا تشبع ولا ترتوي ولن تتمكن الخزينة من إشباعهم، ولكن عبد الله يعرف كيف يفرض الضريبة المقدسة على الناس من دون استنزاف التجار، وعندما يخشى الخليفة من قيام فتنة بين الناس يردّ عليه عبدالله:

"رعيتك .. قد يتذمرون، ولكن ما أن يواجههم حارس حتى يمضغوا تذمرهم، وفي النهاية يهرولون، لينبشوا الأرض من أجل تسديد الضريبة."[46]

أظهر ونوس إلى الآن مواقف **السلطة السياسية**، بشقيها المتصارعين، اللذين أظهرا استهتارهما بوحدة الوطن، وبقدسية حريته، كما أظهرا احتقارهما لرعية لم تعِ دورها في رسم مصيرها أمام صراعاتهم التافهة على كرسي السلطة. وذلك ما يتطابق بين أحداث الحكاية المروية وواقع أهل الزمان المتواجدين في المقهى على المسرح والذين يمتد وجودهم **لصالة المسرح**، ولكلّ أركان المجتمع المستكين.

ثم يكمل الحكواتي الحديث عن قهر الناس وفقرهم في بغداد، وينقلنا إلى موقف امرأة وزوجها، اللذين لم يذوقا الطعام منذ يومين، ونشاهد المرأة وهي تحاول أن تسكت طفلها الذي لا يتوقف عن البكاء ثمّ تطلب من زوجها التوسّل لربّ عمله بإعادته للعمل، فيخبرها بأنّه لم يترك وسيلة إلاّ واستخدمها معه دون أن يقبل بإعادته في ظروف الكساد، ثمّ تتألم المرأة لأنّ الطفل سيموت بين أيديهما إن لم يطعماه شيئاً، فيطرق الزوج رأسه ويطلب من زوجته، أن تطلب بعض الطعام من جارهم الذي يمتلك في بيته مؤونة عام كامل. تبكي المرأة بأسى، تبكي وتلوم زوجها على طلبه هذا الذي يعني هدر كرامتها، ثم يبدي الزوج ألماً وخزياً، فتقترب منه بعد أن تضع

طفلها جانباً، وتواسي عجزه في زمن ردئ، يبكيان سويّة للموقف المهين، ولكن المرأة تتجه إلى جارها أخيراً وهي تقول:

"الله يغفر .. لن نتركه يموت ونحن نتبادل النظر؟ ويردّ رجلها بأسى وحرقة: لا.. ليس الآن.. لا أستطيع .. لا أستطيع"[47] ويقول الزبون4 : "في النهاية لا تقع إلّا على رؤوس المساكين"[48]

كما أنّ الحكواتي يصف لنا جابر في الغرفة المظلمة بانتظار نموّ شعره بإشراف الوزير، ثمّ تزوره زمرد سرّاً، وتبدي حبّها له وقلقها عليه، وعدم اطمئنانها لزجّ نفسه في هذه المغامرة، وهو يؤكد لها صدق وعود الوزير بتزويجه منها، وعندما تشرح له أحوال الناس في بغداد البائسة والأهوال المنتظرة جرّاء صراع الوزير والخليفة على السلطة يردّ عليها:

"فخّار يكسر بعضه يا زمرد، المهمّ أن أبلغ الرسالة، وأنال مكافأتي."[49] ويلاقي كلامه من جديد استحسان زبائن المقهى في الزمن الحاضر، وإعجابهم بسلوكه الذي سيرفع من شأنه.

بعد مغادرة زمرد مخدع جابر، يكمل الحكواتي القصة ويحكي أنّه، بعد أن نما شعره، أرسل الوزير مملوكه جابر إلى ملك العجم منكتم بن داوود، وقبل انطلاقه، يؤكد جابر على وعود الوزير، ويطلب منه، أن يأمر له بتجهيز عروسه زمرد أثناء غيبته، ثمّ يعده الوزير بأنّه سيلقاها جاهزة لحظة عودته، حيث يدخل الحمام ويخرج منه إلى مخدع الأحباب فوراً.

يحكي الحكواتي كيف خرج جابر من بين الحراس مثل الشعرة من العجين، ونسمع حواراً بين ياسر الذي يمتدح ذكاء وطموح المملوك جابر ومنصور الذي ينذر من هلاك يحيط بكلّ الأمكنة ويقول:

"الأذكياء يلقون بأنفسهم معصوبي العيون في الدوارات. لا يلمحون إلّا نساء وثروات، والأغبياء يحسدون الأذكياء، وطبعاً إن الهلاك يحيط بنا كرطوبة هذا الليل" [50] ويتابع الحكواتي واصفاً رحلة جابر المملوءة بالأحلام، ويحكي عن أهل بغداد الخائفين والصابرين على الجوع، ثمّ على اقتحام الحراس لبيوتهم لينتزعوا للخليفة ضريبة مقدّسة. ويحذّر الرجل4 من الآتي الأعظم حيث ستقتحم الجيوش بغداد وتلتهمُ الأخضر واليابس، ولكن أهل بغداد لا يزالون يطلبون الفرج من الله، من دون أن يتدخلوا في الصراعات الماثلة أمامهم ثمّ يعودوا للتأكيد:

أنّ من يأ خذ أمنا نناديه عمنا، ثم تصرخ امرأة معترضة على الحراس الذين اقتحموا بيتها وأخذوا كلّ شيء منه لتحصيل الضريبة للخليفة، ويردّ الرجل3: لنصبر إن الله مع الصابرين،والعين لا تقاوم المخرز، ولكن الرجل 4 يستمرّ بتحذيرهم من الآتي الأخطر على حياتهم.

يكمل الحكواتي الحكاية بوصول جابر إلى بلاد العجم، ويقدّم رأسه إلى الملك منكتم بن داوود بوجود ابنه هلاوون، ويؤدي دورهما الممثلين اللذين قاما بدور الوزير وأميره، ثم الخليفة

وأخيه، ثم يحلق شعر رأس جابر حتى بانت الرسالة، قرأها الملك ثم يمعن فيها النظر ويهمس بأذن ابنه، فخرج هلاوون من الديوان، ويتمنى جابر على الملك أن يعيده فوراً إلى بغداد، ولكن قبل حصوله على الإجابة يدخل هلاوون ومعه لهب السيّاف، الذي يقود جابر إلى مقصلة الموت. يبدأ هلاوون بتجهيز الجيش للسير إلى بغداد، ثم يسأل هلاوون والده منكتم عن مدى ثقته بالاعتماد على الوزير وأعوانه فيردّ عليه الملك:

"سيكونون كالكلاب .. يلعقون أحذيتنا، ويطلبون مرضاتنا، أسوار بغداد عاتية يابني، وإذا لم أضمن هدمها من الداخل، لا أرمي بجيشنا إليها يهلك، وهو يناطح حجارتها."[51] أمّا مصير المملوك جابر فيخبرنا الحكواتي أنّه اقتيد إلى مكان المقصلة، وفي دربه الذي سيوصله إلى حتفه، كان يتكلم بلا ضابط عن بلاد العجم الجميلة، وكرم أهلها ولذائذ طعامها، وعن محبوبته زمرد التي تنتظره بلهفة، وهي تتزين، إلى أن يوثق لهب رجلي جابر، ثم يفصل رأسه عن جسمه ببلطة مسنونة.

وهنا نسمع احتجاجات زبائن المقهى، الذين يعتبرون أنها نهاية غير عادلة باستثناء الزبون4 الذي يذكرهم بتحذيره لهم من عواقب سلوك جابر الانتهازي. وبعد أن تدحرج رأس جابر على الأرض يتقدم السياف و يحمله بين يديه، ويقهقه بمواجهة الجمهور، ويقول لهم:

"كان موته تحت فروة رأسه، كان يحلم بالعودة رجلاً عالي الرتبة، تنتظره زوجة وثروة. ولكن بين الموت وهذه العودة، المسافة سؤال..."[52] ويرمي بالرأس إلى الحكواتي دون أن يسأل سؤاله، وكأنّ ونوس أراد ان يحيل السؤال والجواب للمتلقين. ينظر الحكواتي بدوره إلى الرأس، ويقرأ نصّ الرسالة التي يطلب فيها الوزير أن يرسل ملك العجم جيوشه، ويهجم على بغداد سرّاً، وإن وجدوا على الطريق عساكر فليقضوا عليها لأنّها إمدادات للخليفة، وتكفل الوزير بالعون وفتح أبواب بغداد للجيش الغازي، ويضيف الوزير حاشية: "وكي يظلّ الأمر سرّاً بيننا اقتل حامل الرسالة من غير إطالة" [53] ثم تُسمع أصوات الزبائن وهم يلعنون الوزير على خيانته للملوك جابر، لقد تعاملوا مع الحكاية بالمقدار الذي ينأون به بأنفسهم ويبتعدون عن مسؤولياتهم، من دون أن يتنبهوا لما جرى لمدينة بغداد جرّاء اقتحامها بالجيوش الغازية، ويكمل الحكواتي ما الذي حلّ ببغداد بعد أن فتح قواد الوزير الأبواب للغزاة، حيث سالت الدماء وتكدّست الجثث وهتكت الأعراض وهدمت البيوت، وانتشر الموت كالهواء، ويقول: "... في ذلك اليوم هبط الليل على بغداد مبكراً ومثقلاً كأنه نهاية الزمان"[54] ينهض الرجل4 من بين الموتى ويقف قرب الحكواتي، وتظهر زمرد ويناولها الحكواتي رأس جابر، تحتضنه، وتقبّله، ثم يتقدّم الثلاثة تتوسطهم زمرد ويتوجهون إلى زبائن المقهى والجمهور ومن خلفهم الجثث والدمار ويقولون سويةً: "من ليل بغداد العميق نحدثكم. من

ليل الويل والموت والجثث نحدثكم. تقولون.. فخار يكسر بعضه.. ومن يتزوج أمنا نناديه عمنا، وتقولون هذا رأينا. لا أحد يستطيع أن يمنعكم من أن تقولوا ذلك. ولكن إذا التفتم يوماً، ووجدتم أنفسكم غرباء في بيوتكم، إذا عضّكم الجوع، ووجدتم أنفسكم بلا بيوت، إذا تدحرجت الرؤوس واستقبلكم الموت على عتبة صبح كئيب لا تنسوا أنكم قلتم يوماً فخار يكسر بعضه.. ومن يتزوج أمنا نناديه عمنا"[55]

وسط اعتراضات زبائن المقهى على هذه الحكاية الكئيبة، حيث جاءوا ليفرّجوا كربهم لا ليكتئبوا، تنتهي المسرحية، ويبقى أهل الزمان الحاضر كأهل بغداد الذين ارتضوا الذل والهوان والفقر بسبب سلبيتهم اتجاه مصير مدينتهم ومصيرهم، ولذلك لم يهتمّوا لما رواه لهم الحكواتي إلا للحكاية التي أرادوا منها أن تنفّس عن كربهم وأحزانهم، دون أن يأخذوا العبرة بغية تغيير مواقفهم وعقولهم وبالتالي مصائرهم. ولذلك يبدو أنهم ينتظرون مصيراً مماثلاً لبغداد ولأهلها إذا تركوا شؤون السلطة لمتنفذين فاسدين جهلة استبداديين، وعندما يسألون الحكواتي عن بداية سيرة الظاهر يجيبهم:

"لا أدري..ربما غداً..الأمر يتعلق بكم"[56]وينسحب الزبائن إلى بيوتهم بغية النوم، ثم الاستيقاظ ليكرروا استقبال أيامهم عديمة المعنى، وتوديعها من دون جدوى..

لمحات عن المسرحية:

انبنت هذه المسرحية على استحضار **حكاية شعبية**، ومعالجة أحداثها وفقاً لمفهوم **إسقاط** الماضي على الحاضر. وعلى الرغم أن ونوس استقى موضوعها من **سيرة الظاهر بيبرس** الشعبية، والتي وجدها في ثناياها وقد كتبت بمقدار صفحة ونصف الصفحة، فقد تمكّن من استلهام موضوعها فحوّلها لنصّ مسرحيّ، مستبدلاً مسار شخصية المملوك جابر الذي يحلم بالثروة والسلطة، والخاضع في الحكاية الشعبية **للقدر** والمصادفة، بشخصية بناها على تحليل منطقيّ للأحداث، وأخضع أفعالها **لقانون السببية** العلمي.

من جملة أهداف ونوس في مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر محاولته إخراج **المتلقي** من عزلته الحاصلة له مع فن المسرح الغريب عنه، وذلك بلجوئه لنصّ جديد يطمح فيه إلى تمازجه مع هذا المتلقي، بعيداً عن الشكل التقليدي للمسرح. وقد بذل **ونوس** مجهوداً موفقاً لتقديم مسرحية يتآلف معها المتفرج في بلاد لها خصائصها المميّزة، لذلك اجتهد بالاشتغال على الكثير من **التقنيات الفنية** ليضفي على مسرحيته صفة **الجماهيرية**، والتي تحقّق للجمهور وظيفة جمالية، فتربّي له **ذائقة** فنية خاصّة، و بذات الوقت تدفعه ليتمرأى في مرآته المنصوبة مابين **الخشبة**

والصالة بغية إعمال عقله، وإدراك واقعه المأساوي، واستعداده لاتخاذ القرار بتجاوز مآسيه نحو التغيير. لقد أراد ونوس من هذه المسرحية أن تكون "مشروع عمل لن يتمّ إلّا بعد أن تتوفر له مجموعة متجانسة لها رؤيتها، تقوم ببنائه وبلورة إمكانياته من خلال بحث دؤوب لا تتوقف حدوده عند الهواجس الجمالية، بل تتعداها إلى المشكلات السياسية والاجتماعية للواقع".[57] ونلاحظ أنّ مشروع عمله هذا ترك فيه الكثير من **الفجوات** والمساحات الفارغة، التي يجب أن يملأها الجمهور أثناء **العرض المسرحي**، بما يلائم البيئة المجتمعية والزمانية التي تعرض فيها المسرحية. أراد ونوس أن يبعث الإلفة بين الجمهور من خلال تحويل العرض المسرحي إلى **سهرة** منوعات فنية، يحصل فيها المتلقون على أمثولات تهمّ حياتهم الراهنة. ويذكر ونوس بهذا الصدد: "إنّ كلّ تجربة عرض لهذه المسرحية ينبغي أن تكون في الوقت نفسه تجربة بحث ظروف البيئة الراهنة، وشروط الاتصال بالمتفرج والتفاعل معه. دون ذلك، هذه المسرحية تفقد كلّ مبرراتها وقيمتها أيضاً"[58] ومن الجدير بالذكر أنّ ونوس طرح مفهومه لتجارب **مسرح التسييس** ابتداء من هذه المسرحية، والذي ينطلق من الحصول على حكاية تهمّ الناس جميعاً، وتحويلها إلى فرجة يتمتع بها المتلقون، ويفكّرون بواقعهم بغية تغيير مصائرهم.

لقد كثّف ونوس في مسرحية المملوك جابر من **الأمثولات** و**الأمثال**، وتمكّن من تصوير يأس وغفلة أهل الأمة في بغداد في زمن ماض، وإذعانهم للقبول بقدرهم من غير أن يسعوا لتغيير واقعهم المأساوي بظلّ نظام حكم سياسي يستدعي الأجنبي، أو يفرّط بوحدة الوطن، لمواجهة خصومه السياسيين وتحقيق مصالح ضيقة لأشخاص متمكنين من السلطة، حتى أوصلوا الوطن لحالة غزوّ عسكري فأحالهم إلى الفقر والاستعباد والموت، وهو ينذر الحاضرين في الزمن الراهن أنهم سيلاقون ذات المصير إذا استمروا على غفلتهم وسلبيتهم اتجاه قضاياهم المصيرية.

مسرحية الفيل ياملك الزمان